الحق ... أقول لكم

«فتقدم التلاميذ وقالوا : لماذا تكلمهم بأمثال ؟ فأجاب وقال لهم : لأنه قد أعطى لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات ، وأما لأولئك فلم يعط . فإن من له سيعطى ويزاد ، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه.. من أجل هذا أكلمهم بأمثال»

(مت ١٣ : ١٠ - ١٣) .

obeikandl.com

obeikandl.com

في الأناجيل المتداولة أمثال سائرة موجزة من محكم القول .. وفي الأناجيل المتداولة أمثال قصصية يُستعمل فيها أسلوب التصوير والتمثيل للتعبير عن المعنى المقصود . وفي هذه وتلك من الجوانب الفنيّة ما يستحق التأمّل ..

«فلمّا نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشّارين والخطاة ؟

فلمّا سمع يسوع قال لهم :

لا يحتاج الأصحّاء إلى طبيب .. بل المرضى ...

إني أريد رحمة ... لا ذبيحة ...

لم آت لأدعو أبراراً ... بل خطاة – إلى التوبة ... » (٩ : ١١-١٣ ، مر ٢ : ١٦-١٧ ، لو ٥ : ٣٠ - ٣٢)

وكلّ كلمة من كلمات المسيح الثلاثة ، شعار جميل لرسالته ، يحمل في طيّات كلماته القليلة ، الكثير ...

«وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفى كل مرض وضعف في الشعب . ولما رأى الجموع تحنّن عليهم ، إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها . حينئذ قال لتلاميذه :

الحصاد كثير ، ولكن الفعلة قليلون .. فاطلبوا من ربّ الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده » (مت ٩ : ٣٥-٣٨ ، لو ١٠ : ٢) !!

مثل مستمدّ من بيئة زراعية ، يصور قلّة الصالحين - ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣] ! وقرينه في بيئة الإبل عند نبي العرب : (إنما الناس كإبل مائة : لا يكاد تجد فيها راحلة) ! [1]

---

١ - الحديث لأحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وصححه السيوطي.

والمثل السائر : لا كرامة لنبي في وطنه – له رواية في الإنجيل : «ولما جاء إلى وطنه كان يعلّمهم في مجمعهم حتى بُهتوا وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات؟ أليس هذا ابن النجار ؟ .. وأما يسوع فقال لهم : «**ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته** ... ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم إيمانهم»، «ليس لنبي كرامة في وطنه » (مت ١٣ : ٥٤-٥٨ ، مر ٦ : ٢-٦ ، لو ٤ : ٢٤ ، يو ٤ : ٤٤) .

وعبّر المسيح عن قرابة الروح بين أبناء العقيدة الواحدة : «**من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي**» ، «**أمي وإخوتي الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها**» (مت ١٢ : ٤٩ ، مر ٣ : ٣٥ ، لو ٨ : ٢١) .

كذلك عبّر عن نداء السلام في رسالته في حكمة تناقلتها الألسنة من بعده : «وفيما هو يتكلم ، إذ يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ومعه كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب .. وإذا واحد من الذين مع يسوع مدّ يده واستل سيفه ، وضرب عبد رئيس الكهنة – فقطع أذنه . فقال له يسوع : ردّ سيفك إلى مكانه .. **كل الذين يأخذون السيف ، بالسيف يهلكون**» (مت ٢٦ : ٤٧-٥٢) !

وردّ المسيح على من زعم أنه يستعين على معجزاته برئيس الشياطين : «فعلم يسوع أفكارهم ، وقال لهم : **كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب** ... وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لايثبت . فإن كان الشيطان يخرج الشيطان – فقد انقسم الشيطان على ذاته ، فكيف تثبت مملكته ؟ » (مت ١٢ : ٢٥ – ٢٧ ، مر ٣ : ٢٣ – ٢٦ ، لو ١١ : ١٧-١٨) .

وردّد المسيح في الهيكل تلك الشهادة الجميلة في حقّ الأطفال – وهو يحاجّ اليهود : «أما قرأتم قط : **من أفواه الأطفال والرضّع هيّأت تسبيحاً**» (مت ٢١ : ١٦) !

كما صوّر رسول الروح وداعية المحبة غاية الدين – وكل رسالة خلقية أو أدبية ، وحدّد الفارق بين التقدّم المادي والأدبي في هذه الكلمة : «**ماذا ينتفع الإنسان** لو

ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟» .... ومن هنا قال: «من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها» (مت ١٦ : ٢٥-٢٦، مر ٨ : ٣٥-٣٦، لو ٩ : ٢٤-٢٥).

وقريب من هذا في الأدب الإسلامي (احرص على الموت توهب لك الحياة)!! وعند الصوفية : أعبد العبودية هي أقصى درجات الحرية !! ويقول ابن عطاء الله السكندري مناجياً ربه ومولاه : (ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟).

ولا ننسى أن نشير إلى ذلك النشيد السماوي الذي يُجمل رسالة المسيحية : «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموي مسبحين الله وقائلين : المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرَّة» (لو ٢ : ١٤).

وللمسيح كذلك إشارات بيانية بارعة : «وإذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل، أبصر أخوين : سمعان - الذي يقال له بطرس- وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر، فإنهما كانا صيادين. فقال لهما : **هلّم ورائي ... فأجعلكما صيادّي الناس**» (مت ٤ : ١٨-١٩، مر ١ : ١٦-١٧) !

«ولما رأى يسوع جموعاً كثيرة حوله، أمر بالذهاب إلى العبر. فتقدّم كاتب وقال له : يا معلّم، أتبعك أينما تمضي .. فقال له يسوع : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه !

وقال له آخر من تلاميذه : يا سيد، ائذن لي أن أمضي أولاً وأدفن أبي ؟ فقال له يسوع : **اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم**»! «وقال آخر أيضاً: أتّبعك يا سيد، ولكن ائذن لي أولاً أن أودع الذين في بيتي. فقال له يسوع : ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» (مت ٨ : ١٨-٢٢، لو ٩ : ٥٧-٦٢).

وفيما سلف من فصول كلمات للمسيح محكمة : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .. لا تجرّب الرب إلهك ... للرب إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد ... كلّ من يرفع نفسه يتّضع، ومن يضع نفسه يرتفع !

ومن هذه الكلمات ما كان يردد به المسيح كلمات العهد القديم ... ومنها ما كان ثمرة بيانه وبلاغته .

أما الأمثال القصصية فهي كثيرة متعددة في الأناجيل المتداولة ، وهي تحمل طابع البيئة المحلية التي أجملنا وصفها (في الإطار التاريخي) لهذا الكتاب ...

فكثيراً ما ترد الأمثال ومدارها حول الزرع أو المرعي ، وأحياناً تعرض للتجارة أو الصيد .

«... وقالوا له : لماذا تكلّمهم بأمثال ؟

فأجاب وقال لهم : لأنه قد أُعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات ، وأما لأولئك فلم يُعط . فإنّ من له سيعطى ويزاد ، وأما من ليس له فالذي عنده سيؤخذ منه ! من أجل هذا أكلّمهم بأمثال - لأنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لايسمعون ولايفهمون ! فقد تمت فيهم نبوة أشعياء القائلة : تسمعون سمعاً ولا تفهمون ، و مبصرين تبصرون ولا تنظرون ، لأنّ قلب هذا الشعب قد غلظ ، وآذانهم قد ثقل سماعها ، وغمّضوا عُيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم ! ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ، ولآذانكم لأنها تسمع . فإني الحق أقول لكم : إنّ أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا » (مت ١٣ : ١٠ -١٧ ، مر ٤ : ١٠-١٢) .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ! ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس : ٤٢ - ٤٤] .

وقد تساءل بطرس يوماً : هل يُقصد التلاميذ أيضاً بالأمثال في الخطاب ؟؟ «فقال له بطرس : يا رب ألنا تقول هذا المثل ، أم للجميع أيضاً؟ »، «وبأمثال كثيرة مثل هذه كان يكلّمهم - حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ، وبدون مَثَلٍ لم يكن يكلّمهم ، وأما على انفراد فكان يفسّر لتلاميذه كل شيء » (لو ١٢ : ٤١ ، مر ٤ : ٣٣-٣٤) .

ولنتجوّل مع المسيح قليلاً في حديقة الأمثال ...

سأله تلاميذ يوحنا : لماذا لايشترك أتباعه معهم ومع الفريسيين في الصيام ؟ «فقال لهم يسوع : هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم ؟ ... ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق ، لأنّ الملء يأخذ الثوب فيصير الخرق أردأ ! ولا يجعلون خمراً جديدة في زقاق عتيقة ، لئلا تنشقّ الزقاق فالخمر تنصبّ والزقاق تتلف ، بل يجعلون خمراً جديدة في زقاق جديدة فتحفظ جميعاً ! » (مت ٩ : ١٤-١٧ ، مر ٢ : ١٨-٢٢ ، لو ٨ : ٩-١٠) .

وفي هذا المعنى ورد في القرآن : ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج : ٦٧] .

«في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر .. فكلمهم كثيراً بأمثال قائلاً : هوذا الزارع قد خرج ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق - فجاءت الطيور وأكلته ، وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيراً - فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض ، ولكن لما أشرقت الشمس احترق وإذ لم يكن له أصل جف ، وسقط آخر على الشوك - فطلع الشوك وحنقه ، وسقط آخر على الأرض الجيدة - فأعطى ثمراً : بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين !! .. من له أذنان للسمع فليسمع ..

فاسمعوا أنتم مثل الزارع .. كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم ، فيأتي الشرير ويخطف ما زرع في قلبه - هذا هو المزروع على الطريق ! والمزروع على

الأماكن المحجرة - هو الذي يسمع الكلمة وحالاً يقبلها بفرح ، ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين ، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر ! والمزروع بين الشوك - هو الذي يسمع الكلمة ، وهَمُّ هذا العالم وغرور الغني يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر ! وأما المزروع على الأرض الجيدة - فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم ، وهو الذي يأتي بثمر فيصنع بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين » (مت ١٣ : ١-٩ ، ١٨-٢٣ ، مر ٤ : ٢-٩ ، ١٣-٢٠ ، لو ٨ : ٤-٨ ، ١١-١٥) ...

وتشبيه الإيمان بالزرع ، وتشبيه القلب بالتربة التي يستنبت فيها الزرع - تشبيه جميل بليغ ...

وقد ورد في القرآن : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة : ٢٦٤ ، ٢٦٥] ....

وفي الحديث النبوي ، شبّه رسول الإسلام قلوب من يعرض عليهم الهدى بأنواع التربة المتباينة :

«إنّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً : فكان منها طائفة قبلت الماء - فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء - فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان - لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ .. فذلك مثل من فقه في

دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلّم ، و مثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[1].

«قدّم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السموات إنساناً زرع جيّداً في حقله ، وفيما الناس نيام جاء عدّوه وزرع زوانا في وسط الحنطة ومضى ! فلما طلع النبات وصنع ثمراً ، حينئذ ظهر الزوان أيضاً ... فقال له العبيد : أتريد أن نذهب ونجمعه؟ فقال : لا ، لئلا تقطعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه ! دعوهما ينميان كلاهما معاً إلى الحصاد ، وفي وقت الحصاد أقول للحصّادين : اجمعوا أولاً الزوان واحزموا حزماً ليحرق ، وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزني ... فتقدّم إليه تلاميذه قائلين : فسّر لنا مثل زوان الحقل . فأجاب وقال لهم : الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان ، والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان هو بنو الشرير ، والعدو الذي زرعه هو إبليس ، والحصاد هو انقضاء العالم ، والحصّادون هم الملائكة - فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون في انقضاء هذا العالم ، يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون النار ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان !! حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم . من له أذنان للسمع فليسمع » (مت ١٣ : ٢٤-٣٠، ٣٦-٤٣) .

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد : ١٧] !!

---

١ - الحديث رواه البخاري ومسلم.

ويضرب المسيح أمثاله أحياناً بأسلوب أكثر إيجازاً ...

«قدّم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملكوت السموات حبة خردل ، أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول ! وتصير شجرة ، حتى إنّ طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها ..

قال لهم مثلاً آخر : يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبّأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع .. هذا كله كلّم به يسوع الجموع بأمثال ، وبدون مثل لم يكن يكلّمهم - لكي يتمّ ما قيل بالنبي القائل : سأفتح بأمثال فمي ، وأنطق بمكتومات منذ تأسيس العالم ..

أيضاً : يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفي في حقل ، وجده إنسان فأخفاه ، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل ..

أيضاً : يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلئ حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كلّ ما كان له واشتراها ..

أيضاً : يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة في البحر وجامعة من كل نوع ، فلما امتلأت أصعدوها على الشاطئ ، و جلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعية ، وأما الأردياء فطرحوها خارجاً ! هكذا يكون في انقضاء العالم - يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، و يطرحونهم في أتون النار ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان !! ..

قال لهم يسوع : أفهمتم هذا كله ؟؟ ... فقالوا : نعم يا سيد .

فقال لهم : من أجل ذلك ، كلّ كاتب متعلم في ملكوت السموات ، يشبه رجلاً ربّ بيت يخرج من كنزه جدداً وعتقاء !

ولما أكمل يسوع هذه الأمثال .. انتقل من هناك» (مت ١٣ : ٣١-٣٥ ، ٤٤-٥٣، مر ٤ : ٣٠-٣٢، لو ١٣ : ١٨-٢١).

أمثلة حول الزرع ، والتجارة ، والصيد ...

إن المسيح يتكلم بلسان قومه ، ليبيّن لهم ما يتقون ، بالأسلوب الذي به يفهمون!

والكروم أيضاً مألوفة في بيئة الرسالة المسيحية ، وصالحة كي تُستمدّ منها الأمثال :

«فإنّ ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلةً لكرمه ، فاتفق مع الفعلة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه . ثم خرج نحو الساعة الثالثة ، ورأى آخرين قياماً في السوق بطّالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم - فمضوا ، وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ، ثم نحو الساعة الحادية عشرة ..

فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة وأعطهم الأجرة - مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين ! فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة - وأخذوا ديناراً ديناراً ، فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر - فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً ! وفيما هم يأخذون تذمّروا على ربّ البيت قائلين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة ، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحرّ !! فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك ، أما اتفقت معي على دينار ؟ فخذ الذي لك واذهب ، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ! **أو ما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بمالي ؟ أم عينك شريرة لأنّي أنا صالح ؟ هكذا يكون الآخرون أوّلين والأوّلين آخرين ، لأنّ كثيرين يُدعون وقليلين يُنتخبون !**» (مت ٢٠ : ١-١٦) .

وهذا المثل هو الذي ارتأى فيه الأستاذ ديورانت - إقراراً من المسيح للتفاوت في المعاملة ، ولحريّة الفرد المطلقة في التصرف في ماله : (أو ما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بمالي؟) ..

وظاهرٌ من القصة أنّ صاحب الكرم قد أعطى كل أجير حقه المقرّر المفروض ، وشاء أن يزيد منحة وهبة لمن يختار - لأنّ هذا فضل منه يزيد عما التزم به ، فهو حرّ في توجيهه الوجهة التي يرتضيها ! وظاهرٌ كذلك أنّ القصة تريد أن تشير إلى اصطفاء الله لمن يشاء من العباد ، فلربما يعمل الإنسان عملاً يسيراً يأتي في وقته المناسب فيثمر ثمرات وافرة تبارك جزاءه ، ولربما يعمل المرء عملاً يستوي فيه مع آخر أو يقلّ عنه لكنه يفترق حسب النية . والله سبحانه وتعالى يقدر الأجر حسب النية ، وحسب الطاقة والوسع ، وحسب العلم والمعرفة ، وحسب الثمرة والنتيجة ...

وهكذا لا يتخلف عدل الله ، ولا فضل الله ، ولا رحمة الله - في جزاء العباد .

«... ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون في ملكوت الله . وهو ذا آخرون يكونون أوّلين وأولّون يكونون آخرين » (لو ١٣ ، ٢٩-٣٠) .

وقد سبق أن عرضنا من قبل لمثلين آخرين ورد فيهما ذكر الكرم : «كان لإنسان ابنان ، فجاء إلى الأول وقال يا ابني : اذهب اليوم اعمل في كرمي ، فأجاب وقال : ما أريد .. وجاء إلى الثاني ، فأجاب وقال : ها أنا يا سيد ... » ، «كان إنسان رب بيت غرس كرما .. وسافر ، ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره ... » إلخ .

ويسوق المسيح لملكوت السموات مثالاً من الأعراس والولائم :

«وجعل يسوع يكلّمهم أيضاً بأمثال قائلاً : يشبه ملكوت السموات إنساناً صنع عرساً لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس ، فلم يريدوا أن يأتوا . فأرسل أيضاً عبيداً آخرين قائلاً : قولوا للمدعوّين : هوذا غذائي أعددته ، ثيراني ومسمّناتي قد ذبحت ، و كلّ شيء معدّ تعالوا إلى العرس ! ولكنّهم تهاونوا ومضوا - واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته ، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم ! فلما سمع

الملك غضب ، وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : أما العرس فمستعد ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقّين ! فاذهبوا إلى مفارق الطرق ، وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس ! فخرج أولئك العبيد إلى الطرق ، وجمعوا كل الذين وجدوهم أشراراً وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ! فلما دخل الملك لينظر المتكئين ، رأى هناك إنساناً لم يكن لابساً لباس العرس ، فقال له : يا صاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ فسكت . حينئذ قال الملك للخدّام : اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، لأنّ كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » (مت ٢٢ : ١-٤)!!

ونبيّ الإسلام يشبّه كتابه أيضاً بالمأدبة : «إنّ هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم »[1] .

وهذا مثلٌ يحذّر به المسيح أتباعه من أن يعيشوا في سكرة فيؤخذوا على غرّة :

«فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على خدمه ، ليعطيهم الطعام في حينه ! .. طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يفعل هكذا . الحق أقول لكم : إنه يقيمه على جميع أمواله ... ولكن إن قال ذلك العبد الردي في قلبه : سيدي يبطئ قدومه ، فيبتدئ يضرب العبيد رفقاءه ، ويأكل ويشرب مع السكارى ! يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره ، وفي ساعة لا يعرفها ، فيقطّعه ويجعل نصيبه مع المرائين !! ... هناك يكون البكاء وصرير الأسنان !!

حينئذ يشبه ملكوت السموات بشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس ، وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات . أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً ! وأما الحكيمات فأخذن زيتاً في آنيتهن مع مصابيحهن . وفيما أبطأ العريس نعسن جميعاً ونِمنْ ، ففي نصف الليل صار صراخ : هو ذا العريس مقبل فاخرجن للقائه !! فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن

---

١ – رواه الحاكم في المستدرك – وضعفه السيوطي.

مصابيحهن . فقالت الجاهلات للحكيمات : أعطيننا من زيتكن ، فإنّ مصابيحنا تنطفئ فأجابت الحكيمات قائلات : لعله لا يكفي لنا ، ولكن بل اذهبن للباعة وابتعن لكم . وفيما هنّ ذاهبات ليبتعن ، جاء العريس ، والمستعدات دخلن معه إلى العرس ، وأغلق الباب ! أخيراً جاءت بقية العذارى أيضاً قائلات : يا سيد يا سيد افتح لنا ، فأجاب وقال : الحق أقول لكم إني ما أعرفكنّ !! فاسهروا إذن ، لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التي يأتي فيها ابن الإنسان » (مت ٢٤ : ٤٥-٥١ ، ٢٥ : ١-١٣ ، مر ١٣ : ٣٤-٣٧ ، لو١٢ : ٣٦-٤٨) !

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر : ١٨ - ٢٠] ! ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان : ٢٧] !!

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر : ٥٣ - ٦١] .

وكما أرسل المسيح إلى (الحرفيين الطقوسيين) قوارع الكلم صريحة سافرة ، فقد أدار عليهم أمثاله وقصصه الرمزية :

«وإذا ناموسي قام يجرّبه قائلاً : يا معلّم ، ماذا أعمل لأرث الحياة الأدبية ؟ فقال له : ما هو مكتوب في الناموس - كف تقرأ ؟ فأجاب وقال : تحبّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك ، وقريبك مثل نفسك . فقال له : بالصواب أجبت ، افعل هذا فتحيا ... وأما هو فإذ أراد أن يبرّر نفسه قال ليسوع : ومن هو قريبي ؟ فأجاب يسوع وقال :

إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا ، فوقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه، ومضوا وتركوه بين حيّ وميت ، فعرض أنّ كاهناً نزل في تلك الطريق ، فرآه وجاز مقابلة ! وكذلك لاوىّ أيضاً ، إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابلة ! ولكن سامريّا مسافراً جاء إليه ، ولما رآه تحنّن فتقدم وضمّد جراحاته وصبّ عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابّته ، وأتى به إلى فندق واعتنى به ، وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له : اعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك ... فأي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص ؟ فقال : الذي صنع معه الرحمة ! فقال له يسوع : اذهب أنت أيضاً واصنع هذا »!!

«وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه . فتذمّر الفريسيون والكتبة قائلين : هذا يقبل خطاة فيأكل معهم ! فكلّمهم بهذا المثل قائلاً :

أيّ إنسان منكم له مائة خروف وأضاع واحد منها ، ألا يترك التسعة والتسعين في البرّية ويذهب لأجل الضالّ حتى يجده ! وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً ، ويأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً لهم : افرحوا معي لأني وجدت خروفي الضالّ ! أقول لكم : إنّه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين بارًّا لا يحتاجون إلى توبة !! وأيّة امرأة لها عشرة دراهم إن

أضاعت درهماً واحدة ، ألا توقد سراجاً وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده؟ وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات قائلة : افرحن معي ، لأني وجدت الدرهم الذي أضعته .. هكذا أقول لكم : يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب!!

وقال : إنسان كان له ابنان ، فقال أصغرهما لأبيه : يا أبي أعطني القسم الذي يصيبني من المال ! فقسم لهما معيشته ، وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الأصغر كلّ شيء وسافر إلى كورة بعيدة ، وهناك بذّر ماله بعيش مسرف . فلما أنفق كل شيء ، حدث جوع شديد في تلك الكورة - فابتدأ يحتاج ! فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة ، فأرسله إلى حقوله ليرعى خنازير . وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه أحد ! فرجع إلى نفسه وقال : كم من أجير لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعاً ! أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له : يا أبي أخطأت إلى السماء وقُدّامك ، ولست مستحقًّا بعد أن أُدعى لك ابناً ، اجعلني كأحد أجراك ! . فقام وجاء إلى أبيه . وإذ كان لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله ... فقال الأب لعبيده : أخرجُوا الحلة الأولى وألبسوه ، واجعلوا خاتماً في يده وحذاء في رجليه ، وقدّموا العجل المسمّن واذبحوه فنأكل ونفرح ، لأن ابني هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالًّا فوجد - فابتدأوا يفرحون ! ... وكان ابنه الأكبر في الحقل ، فلما جاء وقرب من البيت سمع صوت آلات طرب ورقصاً - فدعا واحد من الغلمان وسأله .. فغضب ولم يرد أن يدخل ، فخرج أبوه يطلب إليه ، فأجاب وقال لأبيه : ها أنا أخدمك سنين هذا عددها ، وقط لم أتجاوز وصيّتك ، وجديا لم تعطني قط لأفرح مع أصدقائي ! ... فقال له يا بني أنت معي في كل حين ، وكل مالي فهو لك . ولكن كان ينبغي أن نفرح ونسرّ ، لأن أخاك هذا كان ميتاً فعاش ، وكان ضالاً فوجد! » (لو ١٠ : ٢٥-٣٧ ، ١٥ : ١-٣٢ ، مت ١٨ : ١٢-١٣) .

وهكذا نجد أنفسنا مع المسيح دائماً في (فلسطين) ...

تارة في أرض الكروم أو الحنطة ، وأخرى في مَرْعى الخراف أو الخنازير !

وكثير من أحاديث نبي الإسلام تصوّر أفراح السماء بتوبة المذنبين ، ومن أوجزها : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، من أحدكم - إذا سقط عليه بعيره وقد أضلّه بأرض فلاة» [1] !!

وقد صوّر المسيح تكالب الفريسيين على المال ، ولو أتى من الحرام :

«وقال أيضاً لتلاميذه كان إنسان غنيّ له وكيل ، فوشى به إليه بأن يُبذر أمواله فدعاه وقال له : ما هذا الذي أسمع عنك ؟ أعط حساب وكالتك ، لأنك لا تقدر أن تكون وكيلاً بعد ! فقال الوكيل في نفسه : ماذا أفعل ؟ لأن سيدي يأخذ مني الوكالة ، لست أستطيع أن أنقب وأستحي أن أستعطي ! .. قد علمت ماذا أفعل ، حتى إذا عزلت عن الوكالة يقبلوني في بيوتهم ! فدعا كل واد من مديوني سيده ، وقال للأول : كم عليك لسيدي ؟ فقال : مائة بثّ زيت ، فقال له : خذ صكك واجلس عاجلاً واكتب خمسين . ثم قال لآخر : وأنت كم عليك ؟ فقال : مائة كرّ قمح ، فقال له : خذ صكّك واكتب ثمانين !! فمدح السيد وكيل الظلم - إذ بحكمة فعل ، لأنّ أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم . وأنا أقول لكم : اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم ، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية !! .. الأمين في القليل أمين أيضاً في الكثير ، والظالم في القليل ظالم أيضاً في الكثير . **فإن لم تكونوا أمناء في مال الظالم ، فمن يأتمنكم على الحق ؟ وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير ، فمن يعطيكم ما هو لكم ؟ لا يقدرُ خادم أن يخدم سيدين .. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال !!!**

---

١ - البخاري ومسلم.

وكان الفريسيون أيضاً يسمعون هذا كله - وهم مُحبّون للمال - فاستهزأوا به ! فقال لهم : أنتم الذين تبرّرون أنفسكم قُدّام الناس ، ولكنّ الله يعرف قلوبكم ، **إن المستعلي عند الناس هو رجس عند الله** ...

كان إنسان غنيّ وكان يلبس الأرجوان والبزّ وهو يتنعّم كل يوم مترّفها ، وكان مسكين اسمه لعازر الذي طرح عند بابه مضروباً بالقروح ، ويشتهي أن يشبع من الفُتات الساقط من مائدة الغنيّ ، بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه .. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم ، ومات الغني أيضاً ودفن . فرفع عينيه في الهاوية - وهو في العذاب - ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حُضنه .. فنادى وقال : يا أبي إبراهيم ارحمني ، فأرسِلْ لعازر ليبلّ طرف إصبعه بماء ويبرّد لساني ، لأني معذّب في هذا اللهيب !! فقال إبراهيم : يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك ، وكذلك لعازر البلايا ، والآن هو يتعزّى وأنت تتعذب ! وفوق هذا كله بيننا وبينكم هُوّة عظيمة قد أثبتت ، حتى إنّ الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا .. فقال : أسألك إذن يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي ، لأنّ لي خمسة إخوة حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً على موضع العذاب هذا !! ... قال له إبراهيم : عندهم موسى والأنبياء ليسمعوا منهم ! فقال : لا يا أبي إبراهيم ، بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون . فقال له: إن كانوا لايسمعون من موسى والأنبياء ، ولا إن قام واحد من الأموات يُصّدقون !!! » (لو ١٦ : ١-١٥ ، ١٩-٣١) .

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ

قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ..... قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ !! [الأعراف: ٤٤ - ٥١].

«تمتاز **القصّة** بأنها تصوّر نواحي الحياة .. فتعرض لك الأشخاص وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم واتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، فتعرضها عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم . فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش - عرفت ما يستكنّ في النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من الخواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم ، وضقت ذرعاً بذوي النفوس المظلمة والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأي العين وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحيا بينهم ...

وتمتاز القصة كذلك بأنّ النفس تميل إليها ، فغزيرة حب الاستطلاع تعلّق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتي القصصي البارع استشرافاً لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء ....

والقصة - بهاتين الميزتين - من خير الوسائل التي يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ، فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حيّة تحرّك الوجدان وترفع نبض المشاعر ، وهي بالميزة الثانية - ميزة التنبيه والتقبّل - تجعل النفوس أوعية مفتوحة يصبّ فيها الداعية ما يشاء ، فيبلغ القرار !

والناس في قديم الزمان يجدون في طبائعهم الميل إلى الاستشهاد **بالمثل** ، والمثل قول واضح موجز حكيم ، ينتصب صدقه في القول فيألفه الناس ويجري بينهم ويشيع في أحاديثهم . فقد يكون أحدهم بصدر حال يحكيها أو يسمعها فيحضره مثل يشابهها في المعنى فيستشهد به - لا لأنّ الكلام يزيد به صدقاً ، بل لأنّ النفس تستأنس بالمثل ، ويلتمع في جوانبها ضوء من وضوحه وجمال حكمته ، فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل ومعنى الحديث ثم تنطبق عليها في تزاوج ووئام ، فإذا بالحال التي كانت تحكي قد استقرت لدى السامعين في رضا وقبول واطمئنان !! ومن ضرب الأمثال أن تشبّه أمراً دقيقاً خفيًّا - أو به بعض الخفاء - بأمر حسيّ مما يعهده الناس في حياته اليومية ..

ومن قبيل ضرب الأمثال **القصص الرمزية** : وهي قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهر معناها ، بل يريد معنى مستوراً يكشفه بعد الانتهاء منها أو يشير إليه قبل البدء فيه ... فقد يكون الداعية في مقام لا يحسن فيه التصريح ، فيسعفه مثله القصصي الرمزي بمراده ، هذا إلى أنّ فهي طرافة وتجديداً للنشاط النفسي . فقد يغرب المؤلف قليلاً ويطالعك في قصته بشيء من الأوضاع الشاذة غير المعقولة ، فتعذب القصة وتفيض طرافتها حلاوة ، فتقبل عليك بأزمّتها ، فإذا انتهى وشرح يحلّ العقدة ويوضّح الرموز ، لمعت الأنوار في العقول والقلوب ، واستفاض الرضا عن معناه في النفوس !! »[1] .

والمسلمون يقرأون كثيراً من القصص والأمثال في كتاب ربّهم وحديث نبيهم ...

«فالتصوير هو الأداة في أسلوب القرآن ، فهو يعبّر بالصورة الـمُحسَّة الـمُتَخيَّلَة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ! .. ثم يرتقي بالصورة التي

---

١ - البهي الخولي : تذكرة الدعاة (الطبعة الأولى ١٩٤٥) ص٣٩ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٥.

يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجدّدة - فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص ، وإذا الطبيعة البشرية مُجسّمة مَرْئيَّة ! فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر فيردّها شاخصة حاضرة - فيها الحياة ، وفيها الحركة . فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل ! فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظّارة ، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر وتتجدّد الحركات ، وينسى المستمع أنّ هذا كلام يُتلى ومثل يضرب ويتخيّل أنه منظر يعرض وحادث يقع ! فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ، وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة ، فتنمّ عن الأحاسيس المضمرة .. إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة !!

... يريد أن يبيّن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً ، وأنّ القبول أو الدخول أمر مستحيل - هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجرّدة ، ولكنّ أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ ... ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتّح أبواب السماء ، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سمّ الخياط ، ويختار من أسماء الحبل الغليظ (الجمل) خاصة في هذا المقام ، ويدع للحسّ أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ، ليستقرّ في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة في أعماق النفس ، وقد وردا إليها من طريق العين والحسّ - تخييلا - وعبرا إليها من منافذ شتى في هينة وتؤدة ، لا من منفذ الذهن وحده ، في سرعة الذهن التجريدية !

ويريد أن يبرز معنى : إنّ الله وحده يستجب لمن يدعوه ، وينيله ما يرجوه ، وأنّ الآلهة التي يدعونها مع الله لاتملك لهم شيئاً ، ولا تنيلهم خيراً ، ولو كان الخير قريباً ،

فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة : ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ! وهي صورة تلحّ على الحسّ والوجدان ، وتجتذب إليها الالتفات فلا يستطيع أن يتحوّل عنها إلا بجهد ومشقة ، وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ : شخص حيّ شاخص ، باسط كفيه إلى الماء ، والماء منه قريب ! يريد أن يبلغه فاه ، ولكنه لايستطيع ، ولو مدّ مدّة فربّما استطاع !!!

ويريد أن يبيّن أنّ الذي يشرك بالله لا منبت له ولا جذور ، ولا بقاء له ولا استقرار ، فيمثّل هذا المعنى بصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ! .. هكذا في ومضة ، يخرّ من السماء حيث لا يدري أحد ، فلا يستقر على الأرض لحظة - إنّ الطير لتخطفه أو إنّ الريح لتهوي به ... وتهوي به في مكان سحيق ، حيث لايدري أحد كذلك ! وذلك هو المقصود »!![1]

إذن كان بيان المسيح من رصيد النجاح لدعوته ...

وكانت شخصيته كلها شخصية الداعية الموفّق ، والمعلّم الملهم ، والمؤمن المبارك ...

«ولم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات النجاح والفلاح : وأوّلها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع ، والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد . وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية ، وبحق سمي المعلّم - عند تلاميذه وخصومه - ونودي به في مختلف المجامع المحافل ، لأنّ مهمّته الكبرى كانت مهمّة تعليم وإيحاء روحي

---

١ - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن - (الطبعة الثالثة) - ص ٣٤ - ٤٠.

حيوي من طريق التعليم ... وكان نداؤهم له بهذا اللقب ، لأنّهم يجدون في كلامه علماً واسعاً بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنّه كان يرتّل المزامير ، وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال ، فضلاً عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى عليه السلام ، وفضلاً عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام ! ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية ، وأنّ الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لأنّ اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل ! .. ولكن المحقّق أنّه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وأنه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلّمها كلام البلغاء فيها .. على أنّ هذا العلم كلّه بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريداً بين أحبار اليهود في تلك الآونة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلّم الذي يبثّ الحياة الروحانية في النفوس ، وينفث في الخواطر تلك الراحة التي كانت تشبه راحة السريرة – حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ ! لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها ، بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ .. كانت لغة فذّة في تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذّة في بلاغتها وتصريف معانيها . فذّة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب .. كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنظوم ، كانت فنًّا خاصًّا ملائماً لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال . وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية ، لأنّ هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ، ولا في اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المردّدة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وإن كانت لا تتكرّر بلفها المعاد !

كان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه الترديد والتقرير ، وليس في الترجمة العربية ما يدلّ عليه من قريب ، ولكنها مع التأمّل تدلّ عليه من بعيد – كما في هذا المثال : (اسألوا تعطوا ... اطلبوا تجدوا ... اقرعوا يفتح لكم .... لأنّ من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب ... من منكم يسأل ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ، أو يسأله سمكة فيعطيه حيّة ، أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟؟؟ فإذا كنتم – وأنتم أشرار – تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالآب الذي في السماء ، يعطي الروح القدس لمن يسألون!) ... وقريب من هذا نذيره لأورشليم : (يا أورشليم ! يا أورشليم ! يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين ! .. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها – ولم تريدوا ... هوذا بيتكم رهين بالخراب»!! وقريب منه نذيره لبنات أورشليم : (يا بنات أورشليم ! لا تبكين عليّ ، وعلى أنفسكم وأولادكم فابكين ! ... أيام يقولون : طوبى للعواقر ، والبطون التي لم تلد ، والثدي التي لم ترضع ... أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم . والآكام أن تكون غطاء لهم ... إن كان بالغصن الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون؟؟)) !! أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال ، في كل قالب من قوالب الأمثال : ومنه القالب الذي يُعَوِّل على الرمز ، والقالب الذي يُعَوِّل على الحكمة ، والقالب الذي يُعَوِّل على التشبيهات .. ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر ، جواباً على سؤال أو تعقيباً على حادث عارض أو تقريعاً لكابر ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أنّ الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة ..لم يكن محضراً قبل ساعته ، وغاية ما يعرض له التحضير أنّ الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه ، وأنّه تعوّد التفكير في المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير في بواطن قريحته – غير مقصودة ولا متكلّفة ، وهي عادة يعرفها من تعوّدوا التفكير والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير !

ومن البيان ما يروع ويهول ، ويُخيّل إلى سامعه أنه يبتعد من مصدره كلما أصغى إليه ! ومنه ما يجذب ويقرّب ، و يُخيّل إلى سامعيه أنّ كل كلمة منه ترفع حاجزاً أو تدني مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع ! من هذا البيان كان بيان المعلّم المحبوب ، القدير على تقريب سامعيه بالعطف والإلهام – فمن فهم قريبٌ ، ومن لم يفهم غير بعيد ! . . وفي وسعنا أن نتخيّل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لايدرون ماذا سيسمعون ، ثم تتفتّح في أذهانهم الخواطر وتتفتّق فيها الأشياء وتتبيّن الفوارق بين الأضداد ، فينجاب الظلام سدفه بعد سدفه ويعقبه النور قبساً وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يستردّ بصره – مشدوهاً بالرؤية لأوّل مرة ! أو شعور المدلج الذي يصحب الليل من السحر إلى الفجر إلى الصباح .. هداية في رفق ورحمة ، واقتراب في غير عناء واقتحام »[1] !!

هكذا يحكم على أسلوب الأناجيل أديب العربية ومفكّرها الكبير العقاد ، وكفى به خبيرا ..

وهو يحكم على ما وصل إلينا وقرأنا من أساليب ، نالت منها ولا شك متاعب النقل والترجمة ..

«ليست لدينا معلومات وثيقة عن الترجمة السريانية **للعهد القديم** ، ولا عن أصلها ... ومهما يكن من أمرها فقد وصلنا – إلى جانب النص الذي تمثله أغلب المخطوطات التي يرجع تاريخ كتابة بعضها على القرن السادس – نص آخر يشتمل على سفري التكوين والخروج في مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني يرجع تاريخه إلى سنة ٤٦٤م – وهو أقدم مخطوط مؤرّخ للكتاب المقدّس عُرف حتى اليوم ، وهو يتفق مع النص العبري بوجه عام .. هذه الترجمة اليهودية لبعض أسفار العهد القديم ، هي التي أخذتها الكنيسة المسيحية ، فأتمّتها وهذّبت أسلوبها ، واتخذت من هذا النصّ الموسّع نموذجاً مثاليًّا نقلت عنه أكثر مخطوطات العهد القديم ...

---

[1] – العقاد : عبقرية المسيح ص ١٦٦ – ١٧٤ .

ثم رأينا المبشّرين المسيحيين قد استقروا في بلاد أشور قبيل نهاية القرن الأول ... فأي نصوص **العهد الجديد** كانت تستعملها هذه الجاليات المسيحية ؟

هناك نظريتان : أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أنّ طاطيان - الذي جاء من أشور ويرجح أنه ولد حوالي ١١٠م ، وكانت لغته السريانية وتثقّف في المراكز الكبرى ودرس فلسفة اليونان - لما عاد من روما رأي أنّ المسيحيين محتاجون إلى نصّ سرياني للكتاب المقدس ، فوضع كتابه (الدياطسرون) - أي مضمون الأناجيل الأربعة ، ولكنّ هذا الكتاب لم يعجب رجال الكنيسة فيما بعد ، فترجموا الأناجيل من اليونانية إلى السريانية ترجمة كاملة !

وأما أصحاب الرأي الثاني فيرون أنّ المسيحيين في حذّيب كانت لديهم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل ، إلى جانب الترجمة السريانية التي كانت عندهم للعهد القديم والتي ورثوها عن العصر اليهودي الذي أظلّ بلادهم حينا . ويرى أصحاب هذا الرأي أنّ طاطيان نفسه قد استخدم هذه الترجمة السريانية القديمة للأناجيل في تصنيف كتابه (الدياطسرون) !

... ونستطيع إذن أن نقول : إنّ أقدم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل قد وُضعت قبل تأليف الدياطسرون ، ولكن لم تصل إلينا ترجمة مؤرّخة ترجع إلى ذلك العهد ، **وأقدم ما وصل إلينا من نصوص الترجمة السريانية للأناجيل مخطوطتان : إحدهما الكيوريتانية - (نسبة إلى وليم كيوريتون المستشرق الإنجليزي) ويرجح أنها كتبت في القرن الخامس ، والثانية ممحوّة ديرطورسينا** - والممحوة Palimsest كتابة دُوّنت على الجلد أو الرق ثم محيت وكتب مكانها غيرها ، ولكن تمكّن العلماء حديثاً من إظهار الكتابة الممحوّة بطريقة خاصة - وتشتمل الكتابة الظاهرة فيها على قصص للقديسين كتبها الراهب يوحنا في دير (معرَّة مصرين) بين أنطاكية وحلب وفرغ من كتابتها حوالي سنة ٧٧٨م ، وربما كانت الكتابة الممحوّة قد كتبت حوالي القرن الرابع ».

هذه قصة الترجمة السريانية ، وهي من أقرب الترجمات إلى اللغة الأصلية للكتاب المقدس : «فاللغة السريانية إحدى اللهجات الآرامية ، والآرامية لغة من مجموعة اللغات التي اتفق العلماء على أن يطلقوا عليها اللغات السامية ... وآرامية الكتاب المقدس ، كتب بها بعض أجزاء من أسفار عزرا ودانيال ، وهي تدل على مدى انتشار الآرامية بين اليهود في عصر الفرس حتى أصبحت عندهم لغة دينية مقدسة ».

بل إنّ متاعب النقل والترجمة قد استهلّت في عصر المسيح نفسه ، ولم تنقطع حتى ظهرت الترجمات السريانية واليونانية .

«... كانت العامة في فلسطين قد نسيت العبرية في زمان المسيح ، واتخذت لها لهجة آرامية غريبة ، وكان المسيح يحدث تلاميذه ويخاطب العامة (باللهجة اليهودية الغربية المقدسيّة والجليلية) ، مع أننا نعرف من الإنجيل أنه كان يعرف العبرية . ولم يكن الكتاب المقدس قد ترجم إلى هذه اللهجة في أول الأمر ، فكان الأحبار يقرأون التوراة في الصلاة بالعبرية ، ثم يترجمون إلى الآرامية على السامعين – حتى أصبحت الترجمة قسماً من الصلاة عند اليهود ! ثم كتبوا التراجم مع شروح ، وانتهوا من جمعها وتصحيحها في القرن الرابع الميلادي (ترجوم) ، و كذلك كتب بها المدراشيم والتلمود الفلسطيني أو المقدسي – وتحتوي على شرائع ونبذ أحبارهم المشهورين ...

واستعمل السامريون لهجة آرامية غربيّة ، ترجموا إليها التوراة وألّفوا فيها طقوساً وأشعاراً وأدعية خاصة بالصلاة .. وهي قريبة من اللهجة اليهودية الفلسطينية ، لكنها مضطربة ...

وقد أثبت البحث كذلك **أنّ بعض الأناجيل قد كتب أولاً باللهجة الآرامية الغربية – اللهجة التي كانت يخاطب بها المسيح تلاميذه ، ثم نقل بعد ذلك إلى اللغة اليونانية . ولكن الترجمة كانت مع ذلك تشتمل على كلمات آرامية**

بحروف يونانية ، ولكن هذه النسخ من الأناجيل لم تصل إلينا ، ولم يصل إلينا غير النسخة اليونانية – وعنها ترجم ثانية إلى الآرامية والسريانية .

وأما كتابات بولس الرسول فقد كتبت باليونانية مباشرة ..

وقد أخذ نصارى فلسطين وسوريا هذه الترجمة السريانية للعهد الجديد فاستعملوها في كنائسهم ، مع بعدها عن لغة العامة . ثم حدث بعد ذلك أن انقسم النصارى إلى نساطرة ويعاقبة وملكية ، وكان الملكية يخالفون أكثر النصارى الآراميين فعدلوا عن كتابة لهجتهم بالخط السرياني – واستبدلوا به خطا إلى حدّ ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية ، فترجموا الكتاب المقدّس إلى لهجتهم وكانت ترجمتهم حرفية لم يُراعوا فيها المعاني ولا ترتيب الكلمات في الجملة على قواعد اللغة الآرامية ، وكان إملاؤهم غير واضح وغير مشكّل فيمكن الاختلاف في نطق كلماته – لذا لم تلق (اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية أو الملكية) عناية كافية ...

وكان يهود العراق الساكنون في بابل وما حولها يستعملون (اللهجة الآرامية اليهودية البابلية) في كتب الدين بين القرنين الثاني والسابع الميلادي ، وتأثّرت كغيرها من اللهجات الآرامية اليهودية باللغة العبرية . أما (اللهجة المندعية) فاسمها مشتق من كلمة آرامية معناها المعرفة ويسمى أصحابها بالصابئين أو المندعيين – طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة نهر الأردن ثم هاجرت منها إلى العراق ، وكانت أهل حرّان منهم يسمون أنفسهم ناصوريين ، وخلطوا في تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين وأثينية الفرس وأدخلوا عليها أخيراً بعض تعاليم الإسلام – وهم يدّعون أنهم على مذهب يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) !

ولما ظهرت المسيحية وانتشرت في إقليم الرها ، اتخذت اللهجة الآرامية هناك لغة أدبية لها ، وكره أصحابها أن يطلق عليهم اسم الآراميين ، ورأوا في هذه التسمية مرادفاً للوثنية والإلحاد ، فعدلوا عنه إلى الاسم الذي أطلقه عليهم اليونان - وهو (السريان) ، وسمّوا لغتهم السريانية . وليس من شك في أنّ السريانية قد استفادت كثيراً من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية ، فانتشرت فيما بين النهرين ... أما عن أسلوب الكتابة السريانية فقد كان المؤلّفون متأثّرين بأسلوب الكتاب المقدس ، وكثرت في كتاباتهم الاصطلاحات والاستعارات المستقاة منه »[1] .

ولايفوتنا أن نلاحظ أنّ لكل لغة بياناً ، وأنّ ترجمة القرآن المعجز لغير العربية لن تكون في إشراق الأصل العربي ، فلا يُستغرب على الأناجيل في هذه الظروف أن تتثنى لغتها أحياناً أمام متاعب التنقّل بين اللهجات الآرامية ، والتأثيرات العبرية ، والترجمة اليونانية - ثم بقية الترجمات إلى مختلف اللغات !!

« .. ويرجّح المؤرخون المختصون أنّ الأناجيل جميعاً تعتمد على نسخة آرامية مفقودة .. أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعاً باليونانية العامة ، ولوحظ في ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعاني والمفردات . وتتفق الآراء على أنّ هذه الأناجيل لا تحتوي كل ما فاه به السيد المسيح ، إذ جاءت في أعمال الرسل التي تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة إلى السيد المسيح لم ترد في الأناجيل وهي : (تذكروا كلمات المسيح أنّ العطاء مغبوط أكثر من الأخذ) ، وجاء في الأناجيل الأخرى التي لم تعتمد كلمات من هذا القبيل ، وكشفت أوراق بردية في مصر ترجع إلى منتصف القرن الثاني لا تشبه الأناجيل المعتمدة في نصوصها . وتتفق الآراء أيضاً على أنّ نسختين من الأناجيل كتبهما

---

١ - دكتور مراد كامل ودكتور محمد حمدي البكري : تاريخ الأدب السرياني ص ٤٩ - ٥١ ، ٣، ٧، ٩ - ١٣ ، ١٥.

مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعانه : وهما نسخة مرقس التي دوّن فيها ما سمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب - وقد كتبها في روما بعد مقتل الرسول وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتي ٦٧ ، ٧٠م ، والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول دوّن فيها ما سمعه منه ، ولعلّه أضاف إليها جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءاً من إنجيل مرقس بعد اطلاعه عليه - وكانت كتابتها على الأرجح سنة ٨٠م . أما إنجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد على أنّه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ المسيح ، وآخرون يعتقدون أنّه بقلم يوحنا آخر كان في إفسس ولم ير المسيح ، لأنّ يوحنا التلميذ هو صاحب سفر الرؤيا المؤلّف على أصح الأقوال سنة ٩٦م ، ولا يظن أن مؤلفاً واحداً يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى . على أنّ الأب فرارفنتون مترجم الإنجيل (طبعة أكسفورد) يعنّ له أنّ إنجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وأنّه كتبه أولاً بالعربية بين سنتى ٣٠ ، ٤٠م ثم نقله إلى اليونانية . ولكن تأخّر الزمن الذي كتبه فيه هذا الإنجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته في التعبيرات الفلسفية ، وتوسّعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول »[1] .

كل هذه مصاعب اجتازتها الأناجيل المتداولة وترجماتها حتى وصلت إلينا باللسان العربي ...

ومع هذه المصاعب كلها ... وصل إلينا ما وصل في الأناجيل المتداولة ، يشرق منه النور :

«طوبى للمساكين بالروح ... لأنّ لهم ملكوت السموات .

---

١ - العقاد عبقرية المسيح ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

«طوبى للحزانى ... لأنّهم يتعزّون .

«طوبى للودعاء ... لأنّهم يرثون الأرض .

«طوبى للجياع والعطاش إلى البر .. لأنهم يشبعون .

«طوبى للرحماء ... لأنّهم يُرحمون ..

«طوبى للأنقياء القلب ... لأنّهم يعاينون الله .

«طوبى لصانعي السلام .. لأنّهم أبناء الله يدعون .

« طوبى للمطرودين من أجل البرّ ... لأنّ لهم ملكوت السموات ».

يقول ديورانت عن المسيح :

«كان يعلم الناس بالبساطة التي يتطلّبها حال مستمعيه ، ويمزج التعاليم بالقصص الطريفة لتنفيذ دروسه للأذهان ، وبالحكم والأمثال القوية - بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات والمجازات التي لا تقلّ روعة عن أمثالها في آداب العالم».

ويشير ديورانت إلى أنّ القصص الرمزي كان مألوفاً في الشرق وقد استعمله أنبياء بني إسرائيل والمزامير وأحبار اليهود ، كما يقرّر أنّ خطب المسيح كانت واضحة تتّجه إلى هدفها مباشرة ، وهي تنبئ بروعة خيال صاحبها وقوته وإخلاصه العظيم مما رفعها إلى مستوى الشعر الملهم .

وقد تقدّمت مناقشة رأي ديورانت في «غموضها ، ومجافاتها العدالة لأول وهلة»! وهو يزيد أنّ في بعضها «سخرية وحقداً »، وهو يعقّب أخيراً : «وتصعب علينا النظرة الموضوعية المجرّدة ، ومن أكبر أسبابها أنّ تراثنا الأخلاقي ومثلنا العليا وثيقة الصلة به ، تكوّنا على منواله ، ولهذا فإنا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً في أخلاقه ! لقد بلغ شعوره الأخلاقي حدًّا جعله يندّد أشد التنديد بمن لا يشاركونه في آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان ، وإنّ الإنسان ليجد

فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع أخرى منها !! ... كانت عقائده القوية تملأ قلبه ، كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة ... أما فيما عدا هذا فقد كان أحبّ الناس إلى القلوب »!!! وفي خاتمة المطاف يجمل ديورانت وصف كلمات المسيح بأنها : «نماذج في الإنجاز ، والوضوح ، والقوة »[1] ..

وأنا - كمسلم - لا أرى فيما أشار إليه ديورانت ثلمة في رسالة المسيح ، أو مثلبة في سيرته ...

فهو عندي إنسان ، ينفعل بانفعالات الإنسان ..

ورسالته دعوة متطوّرة نامية ، لها مراحل ، ولها غايات عامة شاملة ومواقف جزئية محدّدة ، ولكلٍّ من هذه وتلك - فلسفتها ومطالبها ...

والمسيحية دين واقعي ، نزل ليلائم الإنسان بكل أحواله ، والمجتمع بكل ظروفه ..

تارة يجيب المسيح حين يقول يوحنا : «يا معلم رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك ، فمنعناه لأنه ليس يتبع معنا . فقال له يسوع : لا تمنعوه ، **لأنّ من ليس علينا فهو معنا** »..

وتارة أخرى يقول المسيح : «**من ليس معي فهو عليّ** ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق » (لو ٩ : ٤٩-٥٠ ، مت ١٢ : ٣٠) .

وهذا وذاك موقفان مفهومان ... لأنّ الدعوات والمبادئ تجتاز فترة تجميع وتأليف في بدايتها وبعد غلبتها ، وتجتاز فترة تمييز وتصفية في مرحلة كفاحها .

---

١ - ديورانت : قصة الحضارة ج٣٠ م٣ (قيصر والمسيح) ترجمة بدران : ص٢١٨، ٢١٩ ، ٢٢٤.

أما قول المسيح : «لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ! ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا في هذا العالم ولا في الآتي » (مت ١٢ : ٣١-٣٢) – فهو قول لايقصد به طبعاً إلا الذين يتعرّضون للمسيح ورسالته مكابرة ومعاندة ، لا عن رأي بريء واقتناع !! . وكل مبدأ يواجه المعارضين بحسن نية ويواجه المعارضين بسوء نية ، والأخيرون من العدل والمنطق أن ينالوا جزاءهم وقد ركبت أهواؤهم عقول رءوسهم وعطّلوا نعمة الله فيهم : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤] !!

هؤلاء المكابرون المتمرّدون على الحق والعقل هم الذين يعنيهم المسيح ، أما غيرهم فيفتح لهم كل باب مهما أخطأوا : «وقال لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار ويحتقرون الآخرين هذا المثل : إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصلّيا ، واحد فريسيّ والآخر عشار .. أما الفريسي فوقف يصلي في نفسه هكذا : اللهم أنا أشكرك إني لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا مثل هذا العشّار ! أصوم مرتين في الأسبوع ، وأعشّر كل ما أقتنيه !! .... وأما العشّار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً : اللهم ارحمني أنا الخاطئ ! ... أقول لكم : إنّ هذا نزل إلى بيته مبرّراً دون ذاك ، لأنّ كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع » (لو ١٨ : ٩-١٤) .

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء : ١١٥ ، ١١٦] .

****

ولا أختم هذا الفصل – قبل الإشارة إلى طاقة المناقشة التي أوتيها المسيح ، والتي تجلّت في ثنايا ردوده الخطابية على الكتبة والفريسيين أو محاوراته الجدلية معهم ...

«... جاءوا يسوقونه إلى حيث أبى أن يساق ، وكان همّهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنّه يبطل شريعة ، أو يتصدّى لتنفيذ ذريعة !!

وتعمدوا وهو في الهيكل أن يضطّروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟؟ ...

ماذا يقول هو ؟ ... ما بالهم يسألونه ويستأذنونه ، وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟

إنّ الشرك مكشوف : إن قال ارجموها – فذلك حق الولاية يدّعيه ، وإن قال أطلقوها – فتلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل !! .

فوقف قائماً ، وردّ عليهم رياءهم في وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : (من كان منكم بلا خطيئة فليتقدّم وليرمها بحجر) !

لا ينقض شريعة موسى ، ولا يدّعي تنفيذها ، ولا يجاهل رياءهم ، بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !! ...

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيهقين من متخذي العلم صناعة وأحبولة إلا ارتدّوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيباً أحسن جواب ، بل أكرم جواب !

فلم يصعب عليه أن يحطم (الشرك السياسي) الذي نصبوه له ليسمعوا منه إشارة بإعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود قيصر

ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لايعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معاً ...

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة ، لهي دليل آخر إلى جانب أدلة كثيرة على (الشخصية) التاريخية والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروُونها ولا يفطنون إلى أهم البواعث عليها في سياسة الرسالة المسيحية ، فإنّ هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالإبطال أو الإبدال ... وعلى ذلك جرى أسلوبه في كل أمر وفي كل موعظة ، فهو أسلوب الآداب والمثل العليا ، و ليس بأسلوب النصوص والقوانين »[1] .

---

[1] - العقاد : عبقرية المسيح - ص ١٢٤ - ١٢٦.

obeikandl.com